المبحث الثاني

الاغتراب البيئي

١- الاغتراب الزماني.
٢- الاغتراب المكاني.

الاغتراب البيئي

مثلت البيئة باختلاف معطياتها مناخاً خصباً أسهم في بلورة الإحساس بالاغتراب، فتعمق ذلك الشعور من خلال دفع الذات إلى حالة من القلق والتوتر، تمثلت في عدم القدرة على التآلف والانسجام مع الأوضاع السائدة في المجتمع ورفضه رفضاً قاطعاً، فجاءت صور البيئة مجسدة لبواعث الاغتراب الذاتي من خلال تلك الإيحاءات الدالة على سعة تلك المعاناة.

فالظروف البيئية غير المستقرة وبفضل ما يرافقها من تغييرات، مصحوبة بعدم الانسجام مع الإطار الثقافي العام للمجتمع، تزيد من فقدان التوافق النفسي والانسجام الذاتي، مما يؤدي إلى اختلال معايير الفرد وقيمه، ومن ثم تزيد من حدة الاغتراب داخل النفس الإنسانية. ذلك أن الإنسان بطبيعته يكتسب بعض صفاته من البيئة التي يعايشها، لكن ضمن طاقاته المحدودة، والتي ترفض التكيف مع الواقع البيئي أحياناً حين تبدو غير قادرة على مسايرة تقلباته.

وإزاء هذا الواقع المشوب بالإبهام والضبابية، يزداد قلق الإنسان، وتبدو رؤيته مشوبة بالتشاؤم، وعدمية الواقع، فتتصعد أنفاس الاغتراب بداخله.

وقد نظر الشعراء إلى هذا الواقع البيئي، بمنظارين تمثلا بالاغتراب الزماني، والاغتراب المكاني.

١ - الاغتراب الزماني:

مثَّل الاغتراب الزماني نمطاً آخر من أَنماط الاغتراب حين تناول الزمن بوصفه قوة فاعلة مؤثرة في الإنسان، إذ بات الزمن يمثل محوراً أساسياً في تشكيل ظاهرة الاغتراب الإنساني، وذلك من خلال فقدان التوافق النفسي، والانسجام الذاتي مع اللحظة التي يحياها الفرد، وظهور حالة من التوتر بفعل تلك التبدلات النفسية، وربما تغيُّر المعالم المادية للمكان، لأن الزمن يمثل قوة فاعلة تشمل الإنسان والمكان معاً.

وحمل مفهوم الزمن كل المترادفات الدلالية التي توحي بذلك المفهوم وفعاليته في خلق تحولات جديدة قد تسير بالإنسان باتجاه الفقد والاستلاب كالدهر والأيام والسنين، وقد أضحى الصراع مع الزمن من الهموم التي أرَّقت الشاعر في اغترابه(١).

إذ شكا الشعراء الزمان وصروفه،تدفعهم حياة الشقاء والحرمان والمحن والخطوب التي ألمت بالناس والمجتمع،فضلاً عن الإخفاقات المتكررة نتيجة الضيق بأخلاق الناس وسلوكهم،أو تلك المصائب والأحزان التي تواجههم فيضيقون بالحياة ذرعاً،فكان الشعراء يحمِّلون الزمان الكثير من نزاعاتهم النفسية المتولدة بفعل الانتكاسات التي لا توافق الطموح،وكأَنَّه هو الذي يُصرِّف الأمور،والمسؤول عن تلك التقلبات التي رافقت طباع الناس وسلوكهم بما لا يتلاءم وأهواء الشاعر وميوله وآماله.وتبعاً لذلك راح الشعراء يُفرغون سخطهم عليه والشكوى من صروفه،من خلال نتاجهم الذي يحمل بين طياته أَلَمَ النفسِ ومرارة الواقع،والتي تولدت بفعل عدم انسجام النفس مع الزمان بأحواله المختلفة،مما دفع تلك النفس إلى الاغتراب الذي ولَّد ذلك الإحساس المر لواقع تلك التقلبات المؤلمة حين رُدَّ فعلها إلى الزمان.ويمثل في الوقت نفسه وثيقة احتجاج على ذلك الواقع السيء الذي عاش الناس تحت ظلاله، لذلك وُصف الزمان بالجائر وغير العادل، حين عُدَّ ظُلم الكريم من أَهم سماته. كقول ابن الجبناتي (-٦٢٩هـ):

(الطويل)

(١) ينظر: الرؤى المقنعة، كمال أبو ديب ص٣٢٤.

هُـوَ الـدَّهْرُ لا يَنْفـكُّ حـادثُ خطّبـهِ يَجُـوْرُ علـى الحُـرِّ الكـريمِ ويظلِـمُ[1]

ويبدو أن بعض الشعراء راحوا يُفرغون تلك الانعكاسات النفسية للواقع المرّ على الزمـان، حـين عُـدَّ جـائراً فـي حكمـه ظالمـاً لا يعـرف الإنصـاف، كقـول ابـن المسـتوفي الإربلـــــي (-٦٣٧هـ):

(السريع)

يـا جـوْرَ هـذا الـدَّهْرِ مِـنْ حـاكمٍ لا يعـــرِفُ الإنصـــافَ فـــي الحُكْـــمِ
أَمـــا اكتفـــى بـــالظُّلْمِ حتـــى غـــدا يُلزِمُنـــا الشُّـــكْرَ علـــى الظُّلْـــمِ[2]

وبات الزمان لجوره مصدر همٍّ وقلقٍ للكريم، حين وجد اللئيم فيه مأواه إذ يقول ابن دنينير اللخمي: (الكامل)

وإذا أنظـــرتَ إلـــى الزمـــانِ وجدتَـــهُ تعـــب الكـــريم وراحـــةً للئـــيمِ[3]

ولعل من أبرز ما اشتكاه الشعراء مما نسب للدهَر،الفقر والعوز إذ انطلقت ألسنتهم بذكر عدوان الدهر والشكوى من الزمن،و يبدو أن تلك الآهات تُعدُّ نتيجة طبيعية للظرف القاسي الذي عاشه المجتمع آنذاك،فابن دنينير اللخمي من الذين عانوا قسوة الظروف، فالتجأ إلـــى شـــكوى الزمـــان لمـــن كـــان يـــراه قـــادراً علـــى ســـد حاجتـــه إذ يقـــول: (الكامل)

(١) قلائد الجمان، مج١، ج١، ص١٢٥، وهو إبراهيم بن محمد بن معالي أبو إسحاق الرقيُّ المعروف بابن الجبناتي ولد سنة (٥٧٤هـ) ، كان رجلاً عاقلاً، ذا فضل وعلم، وله شعر حسن، قدم الموصل ودرَّس بالمدرسة العزِّيَّة التي أنشأها أتابك نور الدين وكان خازن كتبها، مات بالموصل سنة (٦٢٩ هـ) ، ينظر: م. ن، ص١٢٣-١٢٤.

(٢) ديوان ابن المستوفي الإربلي (بحث) ، ص١٦٧، مجلة الذخائر، تحقيق وجمع كامل سلمان الجبوري، وهو المبارك بن أبي الفتح أبو بركات الملقب شرف الدين، المعروف بابن المستوفي الإربلي الكاتب النحوي اللغوي الشاعر ولد بإربل سنة (٥٦٤ هـ) له تاريخ إربل، الامثال والأضداد في سرقات الشعراء، جامع الأوراق وغيرها، وزَّره صاحب إربل مظفر الدين بن بكتكتين انتقل إلى الموصل بعد غزو المغول لإربل، وتوفي فيها سنة (٦٣٧هـ) ، ينظر: م. ن، ١٣٩-١٤١، وقلائد الجمان، ٣٩/٦.

(٣) ديوانه (أطروحة) ٣٢١.

ولقد عرفتُ الدهْرَ إذْ من شأنهِ رفعُ الوضيع وخفضُ كلِّ مُرَفَّعِ
لكنَّني لما لجأتُ بأحمرٍ لمْ يبقَ فيَّ لحادثٍ مِنْ مطمَعِ[1]

ويلتجأ في شكواه إلى الملك الناصر ملك حماة (-٦٣٥هـ) إذ يقول: (البسيط)

يا أيُّها الملكُ الميمونُ طائرُهُ وابن الملوكِ ونجلُ السادةِ الأولِ
سمعاً لشكوايَ من دهر حوادثُهُ لا تّتقى بصنوف المكرِ والحيلِ[2]

ويقول في موضع آخر مكرراً شكواه من الزمان الذي قسا عليه وألجأه إلى العوز والفقر: (البسيط)

كم ينحتُ الدهرُمِن عودي ويسلبنُي ما كان يُعرفُ من عزِّي ومقداري

قُبحاً لوجهِ زماني حين أبدلني بعدَ الثراءِ بإعدامٍ وإعسار[3]

ووجد الحسن بن أبي العسائر الواسطي (-٦٨٦هـ) في الزمان قساوة فغدا يكرر ذمه الزمان الذي ذلَّ المتعلم وارتقى بشأن الجاهل، إذ يقول:

(الكامل)

الحمقَ يكرَهُ ثمَّ يقضي حقَّه وأخو الكَياسةَ يُستطابُ فيُحرمُ
بضدِّ ذا كانَ القياسُ وإنما هذا الزَّمانُ يجور فيما يحكُم[4]

ويبدو أن ذم الزمان صار جزءاً من المفردات التي اعتادها الشعراء على مرِّ العصور، وهم في الحقيقة لا يذمون إلاَّ تلك القيم الاجتماعية والاقتصادية من خلال صب

(١) ديوانه، ص٤١١.
(٢) م. ن، ص٥١٩.
(٣) م. ن، ص٢٨٧، وينظر: قلائد الجمان مج١، ج١، ص٣٢٧-٣٢٨، إذ نحى أبو علي الإربلي (٦٣٤ هـ) المنحى نفسه في عرض شكواه من الزمان طالباً العون من ممدوحيه.
(٤) تلخيص مجمع الآداب، ابن الفوطي، ج٤، قسم ١، ص٧٥، وهو عز الدين أبو محمد الحسن بن أبي العسائر بن محمد البياتي الواسطي المقرئ، كان شيخاً صالحاً صوفياً توفي سنة (٦٨٦ هـ) ، ينظر: م. ن، ص٧٥-٧٧.

غضبهم على الزمان وصروفه حين تكفل بأولئك الذين أحاطوا تلك النظم بر عايتهم، لذلك وجدنا الجزري يكرر ذمه لصروف الزمان في إعلائه الجهول وإذلاله الفَطِنْ، لكنه في لحظات الهدوء النفسي يحاول أن يُقنع نفسه أنَّ ذلك من فعل القضاء وما على العالم والنبيه إلاَّ الصبر والتحمل، إذ يقول:

(الكامل)

الـــدهرُ يســـعى للجهـــول لجَهْلـــه ... ويَحُـــطُّ مـــن رُتـــب العقـــول لعقلـــه
ويُقـــيمُ فَـــدْماً ثـــم يخفـــضُ عالمـــاً ... وَرِعـــاً تُحيِّرنـــا محاســـنُ فعلـــه
فاصـــبر إذا نـــزل القضـــاءُ فانـــهُ ... بالصَّـــبْر يُعـــرَفُ نابـــه فـــي أهلـــه[1]

وتشابه كثير من الشعراء في ذمهم الزمان وصروفه، إذ كلما اشتدت عليهم سياط الزمن بنكباته وويلاته وإحكامه، يفرغون تلك النفثات الاغترابية عندما بات الزمن عدواً لدوداً لا آمان له، لذلك يجمع بعض الشعراء في ذمهم بين الدهر والإنسان، إذ لا خيار في زمانٍ حوى تحت جناحيه عصبة من الناس لا ترعى ذمة ولا عهداً[2].

فخطوب الزمان أبت أن تفارق ابن المستوفي الإربلي حتى غدا يتمنى لو أعطاه الزمان من نعمائه كما أعطاه من بؤسه، فيقول:

(الخفيف)

كُـلَّ يـومٍ لنـا مِـنَ الـدَّهْرِ خَطْـبٌ ... يتَخطَّـــى الـــورى ويخْطُـــو إلينـــا
ليـــتَ نُعْمـــى أَيَّامِنـــا مِثْـــلُ بُؤْسَـــاها ... فيـــوْمٌ لنـــا ويـــومٌ علينـــا[3]

فالدهر إن قدَّم جاهلاً لابد له أن يؤخر الفاضل حين يضع الخامل مكان النبيه إذ يقول الشاعر نفسه: (الطويل)

---

(١) شعره ص١٠٤، فدما: بفتح وسكون بعيد الفطنة، وينظر: ص٢٧، ١٣٢، ١٣٣، فقد كرر الجزري شكوى الزمان في انعكاس واضح لتردي الأوضاع الاجتماعية.
(٢) ينظر: قلائد الجمان، مج٤، ج٥، ص٣٤٥.
(٣) ديوانه (الذخائر) ص١٧٢.

إذا مـــا أراك الـــدَّهْرُ تقـــديمَ نـــاقصٍ فـــلا تتوقـــع غيـــر تـــأخيرِ فاضـــلِ
كـــذلك مـــازال الزمـــانُ وأهلُـــهُ خُمـــوُلَ نبيـــهٍ أَو نباهـــة خامـــلِ(١)

ويبدو أن اغتراب الزمان رافق أغلب الشعراء، حين اتفقوا في تحمُّل الزمان فعل نكباتهم حين راح يُعزُّ اللئام ويُذِلُّ الأحرار بتغير صروفه عندما أبدل الميسور عُسراً، في تقلُّبٍ واضح لأحكامه، إذ يقول أبو إسحاق إبراهيم الرافقي:

(البسيط)

لا يـــأمنُ الـــدَّهْرَ خلْـــقٌ فـــي تقَلُّبـــه فالـــدَّهْرُ بالسُّـــوءِ والمكـــرُوْه دوَّارُ
أعـــزَّ قومـــاً لئامـــاً لا خـــلاق لهُـــمْ وذلَّ فيـــه بحُكْـــم الله أحـــرارُ
وصـــار ذو العُسْـــرِ فيـــه مُوْســـراً صـــلفاً وعـــاد فيـــه لـــدى الإيســـار إعســـارُ(٢)

وفي ظل هذه العلاقة المشوبة بالتوجس والتحسس من الزمان وضروبه عمد بعض الشعراء إلى عكس صدى ذلك الأسى الذي طوَّق نفسه، حين أضحى الاغتراب ينشب بأَظافره تلك النفوس المرهفة، ومن خلال أطلاق صيحات الحذر من غدر الدنيا وصحبة أصحابها إذ يقول أبو الفضل الشيباني:

(الوافر)

ذَر الـــدَّنيا ولا تغتـــرَّ فيهـــا بِصُـــحَبة صـــاحب وَوُدَاد خـــلِّ(٣)

أما الصرصري فقد راح يستجير –كعادته- بالرسول ﷺ من صروف الزمان الذي صاحب الجهال على جهلهم، وتنكَّر لذوي العلم والإفهام من خلال إقباله على الجاهل بنعيمه

(١) ديوانه، ص١٦٥.
(٢) قلائد الجمان، مج١، ج١، ص١٠٣، وهو إبراهيم بن عيسى بن المعلَّى، أبو إسحاق الرافقي، نسبة إلى الرافقة وهي بلد متصل البناء على ضفة الفرات، شاعر فاضل له خمسون مقامة في المدح، ينظر: م. ن، ص١٠٣-١٠٤.
(٣) م. ن، مج٤، ج٥، ص٢٨٨، وهو عباس بن بزوان بن محمد بن المعمر أبو الفضل الشيباني، ولد سنة (٥٩٠هـ) عُني بطلب الحديث وسماعه وله (إسلام الصحابة الأعلام ومن له ولد منهم في الإسلام) وكان طيب الصوت ضيِّق الحال فقير، ينظر: م. ن، ص٢٨٧.

مُتغافلاً فضل أهل العلم:

(الخفيف)

يـــا نبـــيَّ الهـــدى أغـــث مســـتجيراً ... بـــك فـــي الخطـــب دائـــم الألظـــاظ
مـــن زمـــانٍ فيـــه القبـــول لـــذي الجهـــ ... ـــلِ ووقـــت لـــذي الحجـــى لفـــاظ
فيـــــه للغمـــــرِ نعمـــــةٌ وثـــــراءُ ... وأخـــو العلـــم عـــاجزٌ عـــن لِمـــاظ[1]

وأمسى بعض الشعراء، بدافع ذلك الاغتراب، وتلك العلاقة المتشعبة مع الزمان إلى ذمه داعياً عليه بالهوان والخسران، راجياً الله سبحانه أن يقاتله، باثاً في ثنايا ذلك شكواه وبؤسه طلباً للعون، كما في قول الجزري:

(الطويل)

ألا قاتـــــل الله الزمـــــانَ لأنَّـــــه ... أخـــو جَنـــف مـــازال فـــي العهـــد ناكثـــا
يُعانـــد أهـــل الفضـــل ظلمـــا ولـــم يـــزل ... كثيـــــث النثـــــا شـــــئن الربائثحانثـــــا
زمانـــاً بـــه يمســـي العلـــيمُ مضـــيِّعاً ... اثيـــثَ الغُثـــا إرثَ الرَّثاثـــة وارثـــا
فآســـوا أخـــا بـــؤس رشـــيق كنانـــة ... رمـــاهُ بهـــا كـــفُ الحـــوادث عابثـــا[2]

أما أبو الفتح المعروف بابن البحري الموصلي (-٦٢٢هـ) فقد أخذ يشكو الزمان إلى الله سبحانه بعدما رماه الزمان بنوائبه، إذ يقول:

(المتقارب)

---

(١) ديوانه (رسالة) ص٢٦٣-٢٦٤، والألفاظ: جمع لفظ وهو الإكثار من الدعاء، اللماظ: ما يتلمظ به في الفم مما يؤكل.

(٢) شعره: ص٥١، أخو جنف: ظالم، كثيث النثا: مفضوح السيئات، شئن الربائث: شديد الخدع، اثيث الغثا بالضم كثير السؤال لفقره رشيق كنانة: رشيق بمعنى مرشوق، وكنانة بالكسر: محفظة السهام، يقصد أنه كان هدفاً للمصائب، وينظر: ص٢٩، ٨٧، ١٠٩-١١٠.

على الهَمِّ أَنفقْتُ شَرْحَ الشَّباب ... وفي النَّائَبات رَمَاني الزَّمانُ
وفي كُلِّ يومٍ حَمايَ يُبَاحُ ... ومالِيْ يُصَابُ ونَفْسي تُهانُ
فياربِّ قَدْ طالَ وقْعُ الأذى ... أَمالِيَ من صرفِ دهري أَمان[1]

وتصل حدة الاغتراب عند أبي إسحاق بن أبي محمد الموصلي (-٦٢٨ هـ) بان يرى الزمان معانده الوحيد، حين اتخذه غرضاً لرشق نباله تجاهه، إذ يقول: (الطويل)

رمتني يُد الأَيَّامِ حتَّى كأَنَّنيْ ... لها غرضٌ والنائباتُ نَبالُ
وعاندني دَهريْ فأَصبحتُ تَقْتفيْ ... رعال الرَّدى منْهُ إليَ رعالُ
فريداً كنصْلِ السيفِ ما إن يشيْنُهُ ... شُحُوبٌ ولا يزْريِ عليه هزَالُ[2]

في حين نجد الحاجري (-٦٣٢هـ) يستفهم مستغرباً العداء الذي ناصبته به الأيام بعدما لاحقه غدرها من خلال فقدان الصديق المرتجى والمعين الذي يطبب جروح الزمن، إذ يقول:

(الكامل)

مالي وللأَيَّامِ وَيْحَ صروفها ... أَبداً تُلاحِظَنيْ بِعَيْنِ عِنادِ
لا مُسْعِدٌ يُرجى ولا مُتوجِّعٌ ... تُشْكى إليه حرارةُ الأكْبَادِ[3]

وعندما تشتدُّ به الحال وينال منه الزمان، يستوحش الوحدة، ولاسيما حين يصاحب الزمان مَنْ هجره، فيطلق صيحات استغاثة حمَّلها أوجاعه التي فرضها عليه طوق

(١) قلائد الجمان، مج٤، ج٥، ص٢٨٠، وهو عيسى بن الفضل بن بشر أبو الفتح المعروف بابن البحري النصراني الموصلي ولد بالموصل سنة (٥٣١هـ) ، انتقل إلى مدينة إربل وتولى الاشراف بالديوان ثم صار عارضاً للجيش توفي سنة (٦٢٢هـ) ، ينظر: م. ن، ص٢٧٩.

(٢) م. ن، مج١، ج١، ص١٢٠، رعال: جمع رعيل، القطعة من الخيل والرجال والطير، وهو إبراهيم بن عبد الكريم أبو إسحاق بن أبي محمد الموصلي ولد سنة (٥٩٥ هـ) ، بالموصل حصل من علم الأدب والعربية نصيباً وافراً، ناظر الفقهاء وكتب الإنشاء بديوان الموصل وكان فاضلاً عاقلاً متنسكاً توفي سنة (٦٢٨هـ) ، ينظر: م. ن، ص١١٤.

(٣) ديوانه ص١٨٧، وهو حسام الدين عيسى بن سنجر بن بهرام بن جبريل الأربليوالحاجري، نسبة إلى حاجر التي كان يكثر من ذكرها في شعره ولد سنة (٥٨٢ هـ) رحل إلى الموصل، بدأ أثر القرآن الكريم واضحاً في = شعره له مسارح الغزلان الحاجرية، القصائد الحجازيات في مدح خير البريات، قتل سنة (٦٣٢هـ) ، ينظر: م. ن، ١٦-٢٥.

الاغتراب حين كبَّلهُ به الزمن، علَّ صيحاته تلك تجد لها صداً يُخفف بعض همه، إذ يقول: (المجتث)

مَـــنْ مُسْـــعِدي ومُعينـــي ... علـــى الزَّمـــان الخـــؤُونِ؟
أَذَلَّنـــي وأرانـــي ... فَـــوْقي الـــذي هـــو دونـــي
وكُـــلُّ أَهـــلِ ودادي ... وَصُـــحْبتَي هَجَرُونـــي
أَقضـــي الليـــالي بِطـــرْفٍ ... بـــاكٍ وقلْـــبٍ حـــزينِ[1]

ونلمس في استفهام ابن دانيال المتكرر صدى الأسى ولوعة الروح المغتربة ولاسيما حين يصرخ متسائلاً، والحسرة تعلو صيحاته تلك، عن ماضيه الجميل وحياته التي ضاعت حينما سلبه الدهر كل ما عنده إذ يقول: (مخلع البسيط)

أَرثَّ صـــرفُ الزَّمـــانِ حـــالي ... فمـــا لِـــدَهري تُـــرى وَمـــالي
حتـــى كـــأَنِّي لـــهُ عـــدُو ... يرشـــقُني منـــه بالنِّبـــالِ
أَيـــن زمـــاني الـــذي تقَضَّـــى ... وأَيـــن جـــاهي وأَيـــن مـــالي
وأَيـــن خُفَّـــي وطَيلســـاني ... وأَيـــن قيلـــي وأَيـــن قـــالي
وأَيـــن عَيشـــي وأَيـــن طيشـــي ... وأَيـــن حُســـني وحُسْـــنُ حـــالي[2]

وعندما يجد أنَّ صدى صراخه عاد إليه بأوجاعه وأنينه، حينما لم يجد أُذناً ترغب سماعه، يعود إلى نفسه المتأججة ليؤنسها حين لم يجد سوى الصبر أنيساً على ريب الزمان، فيقول: (الكامل)

فلأَصـــبِرنَّ علـــى الزَّمـــانِ وإنَّنـــي ... لأَخـــو الشَّـــقاءِ صـــبرتُ أَو لـــن أصـــبرا[3]

ويبدو أنَّ الواقع المأزوم قد يدفع الشاعر إلى إلقاء فعل النوائب والملمات على أكتاف الزمن، ولاسيما عند رثاء الأحباب والأصدقاء وربما يجد في ذلك متنفساً عن بعض همومه،

(١) ديوانه، ص٣٧٦، وينظر: في المعنى نفسه، ص٢٤، ديوان ابن الظهير الإربلي ص٨٧، ديوان ابن زيلاق ١٠٣/٤٠، ابن الحلاوي الموصلي حياته وشعره، ص٢٨.
(٢) المختار ص٢٧٥، وتنسب هذه الأبيات لابن الحلاوي الموصلي حيث يشير محقق ديوانه إلى أنها أقرب إلى أسلوب ابن دانيال، وهي في المختار ١٦ بيتاً وفي ديوان ابن الحلاوي ٢٩ بيتاً.
(٣) المختار، ص١٥٢.

من خلال لوم الزمن الذي يرى فيه عدوه اللدود وهو يطلق سهامه تجاه الناس كقول شمس الدين الكوفي في رثاء تاج الدين عبد الرحيم الموصلي (-٦٧١هـ):

(الطويل)

أرى الـدَّهرَ يَبـري للبريـة أَسـمها فتقصـد مـنهم مَـنْ تقصَّـدَ أو رَمَـى
ويعتمـدُ الأعيـانَ مـنهم بصـرفه وإنْ كـان لا يبغـي سـواهم مصـمما[1]

في حين يرى ابن أبي الحديد (-٦٥٦هـ) أنَّ الموتَ فعلُ من غدر الزمان بالإنسان مما دعاه إلى أطلاق صيحات الحذر، إذ يقول: (مجزوء الكامل)

لا تـأمَن الـدُّنْيا وقَـدْ غـدَرَ الزَّمـانُ بالطَّبرسـي
ورَمَـاهُ مِـنْ بَعْـد الميَـا مـن والسُّـعُودِ بيَـوْمِ نحْـسِ
وكسـاه ثَوْبـاً مِـنْ تُـرا بِ بعـد أَثـوابِ الـدِّمقسِ[2]

وقد صوَّر بعض الشعراء العاشقين واقعهم الوجداني المأزوم بالفراق والوحدة، إذ غدا بعضهم يرمي همومه وأشجانه وسط أجواء الاغتراب على الزمان الذي فرَّق العاشقين، كقول ابن الدبيثي (-٦٢١هـ): (البسيط)

يـابَيْنُ روَّعْـتَ بالبِعـادِ وكَـمْ قـد بـاتَ قلبـيْ والأَسـى يُرَوِّعُـهُ
يـا دهْـرُكم لـك مـن جمـعٍ تُبـدِّدُهُ للعاشـقينَ ومِـنَ شَـعْب تُصَـدِّعُهُ[3]

---

(١) ديوانه ص٦٧، وينظر: ص١٨، قلائد الجمان، مج٣، ج٤، ص٣٣، ٨٩.

(٢) شعر عبد الحميد المدائني الشهير بابن أبي الحديد، عبد الجبار سالم عبد الكريم، أطروحة، ص٢١٠، والشاعر هو عبد الحميد بن هبة الله المدائني الشهير بابن أبي الحديد، ولد بالمدائن سنة (٥٨٦هـ) ، من المشهورين في العصر العباسي الثاني، وله مؤلفات أهمها: شرح نهج البلاغة، الفلك الدائر على المثل السائر، توفي سنة (٦٥٦هـ) ، ينظر: م. ن، ص٢١-٣٢، والمرثي هو علاء الدين الطبرسي الظاهري المعروف بالدويدار الكبير، (-٦٥٠ هـ) ، و هو لقب يطلق على من يحمل دواة السلطان أو الأمير ويتولى أمرها مع ما ينظم إلى==ذلك من الأمور اللازمة، ينظر: العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك، الملك الأشرف الغساني، ص٥٩١.

(٣) قلائد الجمان، مج١، ج١، ص١٦٠، و هو احمد بن جعفر بن أحمد بن الحجاج أبو العباس الواسطي المعروف بابن الدبيثي ولد سنة (٥٥٨ هـ) ، كان عارفاً بالأدب شاعراً فاضلاً له ديوان كبير مفقود، توفي سنة (٦٢١هـ) ، ينظر: م. ن، ص١٦٠، فوات الوفيات، ٦٠/١.

ويبدو أن الشاعر عندما تشتد به الرزايا والمحن، وفي ذروة التأزم النفسي، قد يلجأ إلى الحكمة والموعظة، محاولاً أن يلتمس الموعظة من تلك المصائب، ويخاطب نفسه أو من حوله ناصحاً متأملاً، وهو في الحقيقة يحاول أن يُهدِّئ نفسه في خضِم مصائبه، داعياً إياها إلى الصبر لأحوال الدنيا، إذ يقول ابن دنينير اللخمي:

(الخفيف)

إنَّ للـــــدهرِ حادثـــــاتٍ تولَّـــــتْ ... بالبرايـــا مِـــن قبـــلِ طَسْـــمٍ وعـــادِ
فلـــو أَنَّ الـــدُّنيا تـــدوم لِحـــيٍّ ... منحـــتْ بالبقـــاءِ أشـــرفَ هـــادِ
ومتـى ترعـوي الخطـوبُ وقـدْ صيـ ... ـــغَتْ لِفَـــتِّ القُلـــوب والأكبـــادِ[1]

فالدنيا لا صفو فيها، باطنها مرٌّ وإن بان ظاهرها شهداً، إذ يقول القاسم بن الذظر الفقيه الحنبلي (-٦٥٦هـ) ناصحاً بعدما ذاق مرَّها واغترابها:

(الطويل)

أَلا قُـلْ لِمَـنْ أَمْسَـى علـى الـدَّهْرِ عاكِفـاً ... تَنبَّـــه خَليلـــي قبْـــلَ أَنْ يَفْـــرُطَ الأَمْـــرُ
فـــوالله مـــا دُنْيـــاكَ إلاَّ كزاخِـــرٍ ... وزُهْـــدٍ إلـــى التَّقـــوى لعابرهـــا جســـرُ
أَتَغْتَـــرُّ بالـــدُّنْيا وتطْلُـــبُ صـــفْوَها ... وظاهرُهـــا حُلْـــوٌ وباطِنُهـــا مُـــرُّ
لِكُـــلِّ صـــحيحِ الجسْـــمِ منهـــا بَلِيَّـــةٌ ... وَكُـــلِّ صـــحيحٍ مـــن غوائِلهـــا كَسْـــرُ[2]

ويراها عبد الرحمن بن أبي الفتح الهاشمي الواسطي (-٦٢١هـ) غدَّارة خوَّانة، أفراحها خيال زائر، محذراً من الاغترار بها، إذ يقول: (مجزوء الكامل)

---

(١) ديوانه (أطروحة) ص٦١٩.

(٢) قلائد الجمان، مج٨، ج١٠، ص٢٦٩، وهو القاسم بن الذضر بن القاسم بن عبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق ﷺ ولد سنة (٥٨٠ هـ) ، كان واعظاً حسناً عالماً بالتفسير والحديث فقيهاً شاعراً مُسهباً تولى حسبة بغداد توفي سنة (٦٥٦ هـ) ، ينظر: م. ن، ص٢٦٦-٢٦٧، الوافي بالوفيات ٢٣٨/٢-٢٤٢.

دارٌ تكـــــــدِّر صـــــــفْوها وسُـــــرورها غيـــــرُ الليـــــالي
وَيُحِيـــــلُ بَهْجَـــــةَ حُسْـــــنها صـــرْفُ الـــرَّدى فـــي كـــلِّ حـــالِ
غـــــــدَّارَةٌ خوَّانَـــــــةٌ أَفراحُهـــــا مِثْـــــل الخيـــــالِ
وكمـــــالُ صـــــحَّتها يـــــؤُو لُ إلـــــى فنـــــاء أَو خَبـــــالِ
مَـــنْ كـــان ســـاكِنَها يُعـــدُّ الـــزَّاد حَقّـــاً لا رتحـــال
أو كـــــان مُغتـــــرّاً بهـــــا أَلقتْـــــهُ فـــــي شَـــــرَكِ الوبـــــال[1]

أما الجزري الذي أكثر من شكوى الزمان، فقد راح يُحذر من الدنيا، بعدما ألبسته ثوب الفقر والآسى، إذ يرى أن لا بؤس يدوم فيها ولا نعيم، فيقول: (الكامل)

تبّـــاً لـــدنيانا المليمـــة أنَّهـــا ســـجنُ الرفيـــعُ وجنـــةٌ للســـاقط
داراً تُزخْـــرفُ للئـــيم وتنـــزوي عـــن ذي الفصـــاحة والكـــريم الفـــارط
مـــا نـــال منهـــا الفـــذُ إلاّ مثلمـــا نـــال الهـــزيمُ بجُـــنح ليـــلٍ خـــابط
فـــالبؤسُ فيهـــا والنعـــيمُ كلاهُمـــا عنـــد اللبيـــب كقـــاب ظـــلِّ الحـــائط
فحـــذارِ منهـــا مـــا اســـتطعتَ فأنَّهـــا لـــدْنَ الأريـــب ككفّـــة للآقـــط[2]

إذ نجده يطلق صيحات الحذر من الدنيا وغدرها حين غدت سجناً للرفيع والحليم وأطلقت جناحيها لتفيء إلى اللئام، غير ناظرة لشهبها التي تحرِّق أكباد كل لبيب.

٢ - الاغتراب المكاني:

(١) م. ن، مج٢، ج٣، ص٢٥٥، وهو عبد الرحمن بن محمد بن علي بن القاسم بن العباس بن عبد المطلب الواسطي، ولد بواسط (٥٣٨هـ) كان شيخاً في العلم والآداب، له مصنفات منها (اللباب المنقول في فضائل الرسول ﷺ) وكتاب (المناقب العباسية) وكتاب (تعبير الرؤيا) وغيرها، توفي سنة (٦٢١ هـ) ، ينظر: م. ن، ص٢٥٢-٢٥٣، الوافي بالوفيات، ٢٣٨/١٨، النجوم الزاهرة، ٢٦٠/٦.

(٢) شعره ٨٠، (دارا) ضبطت بالرفع والنصب والجر، الفارط: السباق في الخير، الهزيم: الرعد، قاب: قدر، كفة: فخ الصائد، لاقط: الطير الذي يلقط الحب، وينظر: في المعاني نفسها ديوان الذشابي، ص٣٣٧، ديوان شمس الدين الكوفي ص٤٧، البداية والنهاية، ٨٦/١٣، الحوادث الجامعة، ص١٣٧.

كان للمكان الدور المميز في إحداث رؤية واعية لعذابات الروح ومعاناتها عبر رحلتها في هذا الكون، إذ أحدثَ المكان في كيان الشاعر المغترب فجوة نفسية، وصرخة مؤلمة، عبَّرت عن الواقع غير المنسجم مع الذات، إذ نلمس خلف أستار المكان صيحات دفينة توحي بمعاناة التوتر والاضطراب والقلق، بعد أَن غادر الشاعر وطنه ومرتع طفولته مختاراً أو مكرهاً، ليعيش رحلة جديدة من نوع آخر تبدو فيها تجليات الاغتراب والمعاناة، التي ولَّدتها تلك الآهات النابعة من أسى الافتراق عن الوطن والأهل والأحباب، وعلى الرغم من أن الإنسان العربي كثير التعلق بوطنه يدفعه الحب والحنين إليه، ويجزع الرحيل، إلاَّ أنه لم يكن يتمرد عليه أو يحاكمه، ذلك أنه كان يستجيب له على مرارة وحزن[١]، إذ كان لهذا الشعور العمق الكبير في ارتباط الإنسان بالمكان لأن (ارتباط الإنسان بالأرض أوثق ما يكون في تعلقه بوطنه وهو مقيم في حماه، وفي حنينه إليه وهو ناء عنه)[٢]، وقد تبرز حقيقة هذا الشعور حين يعيش الإنسان حقيقة تجربة الاغتراب المكاني، وحين تصطدم أحلامه ورؤاه بعوائق موضوعية أو ذاتية، تتولد بداخله هواجس الغربة والحيرة، فيمسي المكان (حائلاً أكيداً دون تلقائية الإنسان ويغدو المكان حدّاً من حدود القهر الكبرى)[٣]ولاسيما إن بدا للإنسان أنَّ حدود حريته في ظل الاغتراب المكاني مقيدة بفعل الواقع الجديد فيشعر بفقدان حريته في ذلك المكان ولا ينفك عنه ذلك الإحساس بالانفصام عن المحيط حوله[٤]،بعدما كان يحلم ببيئة جديدة يحلق في أجوائها وفسيح رحابها،لذلك سعى الشعراء إلى بث إحساسهم بالاغتراب في قصائدهم حين أودعوها شوقًا وحنيناً إلى ديارهم وأوطانهم وحمَّلوها من مشاعرهم ما يثير الأسى والحزن،إذ كان الحنين إلى الأوطان من أبرز الخصائص النفسية التي مرَّت بهم،كما كان إحساس الشعراء بالاغتراب المكاني مرآة صافية وصادقة لما يعتمل في نفوسهم من آلام،مما جعلنا نلمس تلك الحرقة بأعبائها الثقيلة وهي تطارح نفوسهم،فتوصد أمامهم كل نوافذ الانفراج.

(١) ينظر: الغربة المكانية في الشعر العربي، عبدة بدوي، (بحث) م عالم الفكر ص١٨.
(٢) الحنين إلى الوطن في تراثنا الشعري، حسن فتح الباب (بحث) مجلة الكويت ص٩.
(٣) سيكلوجية القهر والإبداع، ماجد موريس إبراهيم، ص٦٣.
(٤) ينظر: الاغتراب في الشعر الجاهلي (أطروحة) ص١٤١.

وإن كان الشوق والحنين إلى الوطن وساكنيه من أسباب الاغتراب المكاني إلا أنَّ الإحساس بالاغتراب المكاني خارج الوطن لا ينتهي عند الحنين إليه والحلم بالرجوع، وإنما يرافقه صراعًا حادًا داخل النفس الإنسانية، قد ينتهي بها إلى أي مظهر من مظاهر الاغتراب الروحي أو النفسي،إذ أصبح الاغتراب المكاني يتلاعب بعاطفة الشعراء وإحساسهم الجريح، فراحت أرواحهم تعتصر ألمًا وحزنًا بثُّوه في ثنايا قصائدهم.فقد كان من أثر اضطراب الأحداث السياسية والاقتصادية والاجتماعية،التي مرَّ بها العراق يومئذٍ أن غادره العديد من الشعراء بحثاً عن الأمان، أو سُبل العيش الرغيد، وبما أن الشاعر أرهف أحساساً،وأشدُّ عاطفة من غيره، فقد أضحى يقاسي الألم في غربته، حين ظلَّ ارتباطه بموطنه الأصلي،وشعوره بعدم انتمائه للمجتمع الجديد وحنينه الدائم إلى الوطن الأُم هاجسه الدائم، وراح يدور في متاهات الاغتراب بعيداً عن أهله ووطنه، لأن المكان الذي ينتمي إليه ظلَّ كائناً بين جوانحه، فبدت آثار الحرقة النفسية جلية، حين هزت كيانه وهو يعاني آلام التشرد والابتعاد التي وجدت مداها داخل نفسه، فهذا الشاعر البطريق الحلي (-٦٤١ هـ) يتحرق شوقاً وألماً إلى بغداد، حين غادرها مستوطناً الشام، إذ يقول:

(البسيط)

الشـــامُ داريَ والأشـــجانُ بغـــدادُ ... فـي سـرِّ وجْـديَ فـي الأحْيَـان إعـلانُ
وَكُـلُّ يـوْمٍ يُـوافِي مُـؤَذنٌ بنـوى ... كأَنَّمـــا هَـــذه الأيَّـــامُ غربـــانُ
يـا صـاحبَيَّ قفـا ثُـمَّ اسْـمَعَا خَبـراً ... مِـنْ مُسْـتَهامٍ لـهُ عنْـدَ الحمـى شَـانُ
يَهُـزُّهُ الشَّـوْقُ والتَّـذْكارُ يُطْربُـهُ ... كأَنَّـهُ مـن مُـدامِ الوَجْـدِ نَشْـوانُ[1]

ويستذكر عبد العزيز النفيس (-٦٢٢هـ) بغداد ويصبو قلبه شوقاً إليها وحنيناً لربوعها، فيبكي فراقها كلما ناحت حمامة، إذ يقول:

(الرمل)

(١) قلائد الجمان، مج٣، ج٣، ص٣٥٧، وهو علي بن يجيى بن الحسن بن الياس، أبو الحسن بن أبي زكريا الحلي الأصل والواسطي المنشأ، كان فاضلاً ذكياً جيد النظم والنثر، توفي سنة (٦٤١ هـ) ، ينظر: م. ن، ص٣٥٦، البداية والنهاية ١٦٤/١٣.

هـــاجَ وَجْـــدي عنـــد تغريـــد الحَمـــامِ فَصَـــــبا قلبـــــي إلـــــى دار الســـــلام
بلـــــدَةٌ جانبْتُهـــــا لاعـــــن قِلـــــىً وإليهـــــا جَـــــذَبَ الشَّـــــوقُ زِمـــــامي[1]

وتزداد وطأة الغربة في نفس النُّشابي، حين طال به البعاد عن دار السلام، فيتشوق إلـى بغـداد، فيصـرخ مسـتفهماً هـل مـن زيـارة تشـفي غليـل حنينـه، إذ يقـول: (الكامل)

هـــل ليـــإلى دار السَّـــلام زيـــارةٌ يُشـفي بهـا القلـبُ القـريحُ مـن الصَّـدى؟[2]

وفي استفهامه صدى لأوجاع نفسه في غربته، حين وظَّف تساؤله هذا، ليظهر من خلاله موجات المشاعر المتدافعة، والمحملة بأسى الحنين إلى بغداد، إذ يقف في ربوع رامة باكياً مستذكراً وطنه العراق وأحبته، فيقول حين أطربه شدو الحمام وهيَّج شوقه وتذكاره: (الكامل)

إن شـــئت تعلـــم لـــوعتي وغليلـــي فاســـــأل رواة مَـــــدامعي ونُحـــــولي

فلقـــد وقفـــتُ برامـــةٍ، ولكـــم بهـــا مـــن ســـائلٍ بـــاكٍ ومـــن مَّســـؤولِ

وإنـــي ليُطرِبُنـــي الحمـــامُ إذ شـــدا شـــدواً يُعبِّـــرُ عـــن بُكـــاء هَـــديلِ
ويشـــوقُني ذِكُـــر العـــراقِ وأهلُـــهُ فأميـــلُ لتَّـــذكارِ كـــلَّ مَميـــلِ[3]

وحين أعياه الشوق إلى العراق، لم يجد منفذاً يعين به نفسه حين نفد صبرها سوى الدعاء للعراق، إذ يقول:

(الطويل)

(١) م. ن، مج٢، ج٣، ص٣٩٢، وهو عبد العزيز بن النفيس بن هبة الله البغدادي، كان لطيفاً مطبوعاً ينظم الشعر، ذا فضل وأدب، توفي سنة (٦٢٢هـ) ، ينظر: م. ن، ص٣٩١.

(٢) ديوانه (رسالة ماجستير) ص٢٧٥، وينظر: ص١٨٥، إذ يكرر الشاعر سؤاله حين ضاق صدره ونفد صبره.

(٣) م. ن، ص٢٦٨-٢٦٩، ورامة موضع في آخر بلاد بني تميم بينه وبين البصرة اثنتا عشرة مرحلة، معجم البلدان ١٨/٣.

عـدِمتُ بخوزسـتان صـبراً أضـاعه نِـــزاعٌ إلـــى بغـــداد غيرُمُفنَّـــدِ
سـقى سـاحة الـزَّوراءِ كُـلُّ غمامـةٍ تـــروحُ بســـحَّاحِ الغمـــام وتغتـــدي[1]

وربما وجد في ذلك الدعاء ما يؤنس به نفسه، حين فارقه النوم، وأعياه الشوق إذ نجده يكرر دعاءه بالسقيا لأرض العراق، ليعلن إن هواه بغداد وإن سكن غيرها[2].

وحين أَعيا التذكر والشوق أبا اليمن البغدادي (-٦١٣هـ) لبغداد وساكنيها بعدما دعته الأقدار لاختيار النوى والبعد ومرغماً مكرهاً ووجد أن الحنين يلازمه، أخذ يدعو بمثل المعاني السابقة، علها تُطفي نار الاستذكار، إذ يقول:

(الطويل)

سـقى الله بغـداد وسـاكنيها الحيـا دعـــاء مشـــوقٍ بالتـــذكّر مولـــعِ
تنـاءت بـه الأَقـدارُ عنهـا فمـا لـه علـى ذكرهـا غيـر الحنـين المرجِّـعِ
هـي المنـزل المـأهول والمربـع الـذي لـه الفخـر فـي الـدنيا علـى كـلِّ مربـع[3]

فهذه الأبيات تنم عن إحساس مرهف لشاعر آلمه الفراق واستوطن الحزن نفسه، إذ جاءت كلماته دالة على عواطفه ومشاعره، وآهاته وأوجاعه في غربته بعدما فارق الأحباب والأهل والوطن، فصور إحساسه المتدفق في نفسه وأشواق المغترب إذا ضمه الليل بين جنباته وخيمت عليه الوحشة والسكون.

ويلتهب صدر شمس الدين الكوفي شوقاً وحنيناً إلى مرتع صباه، إذ يقول: (الرمل)

(١) م. ن، ص١٨٥، النزاع: الشوق، المذفد: الضعيف، وخوزستان: اسم لجميع بلاد الخوز، وهي نواحي الأهواز بين فارس وواسط والبصرة وجبال اللوز المجاورة لأصبهان، معجم البلدان، ٤٠٤/٢.

(٢) ينظر: م. ن، ص١٨١-٢٨٢.

(٣) أبو اليمن تاج الدين حياته وما تبقى من شعره ص٦٦-٦٧، وهو زيد بن الحسن بن زيد تاج الدين أبو اليمن البغدادي ولد سنة (٥٢٠هـ) ، ببغداد، رحل إلى مصر وسكن فيها ثم استقر بدمشق، كان غزير العلم حفظ القرآن وهو ابن سبع سنين كان يحفظ الشعر ويرويه له مؤلفات منها (الصفوة) ، (شرح خطب ابن نباته) توفي سنة (٦١٣هـ) ، ينظر: م. ن، ص٣-٢٥.

حنَّـــت الـــنفسُ إلـــى أوطانهـــا وإلـــى مَـــنْ بـــانَ مـــن خلانِهـــا
بـــديارِ حَيِّهـــا مِـــن منـــزلٍ ســـلَّم اللهُ علـــى ســـكَّانِها
تلـــك دارٌ كـــان فيهـــا منشـــئي مـــن غربيهـــا إلـــى كوفانهـــا[1]

وتعتصر نفس طه بن إبراهيم الإربلي (-٦٧٧ هـ) ألماً وشوقاً وحزناً حين يستذكر إربل وديار صباه التي أضحت مألفاً لريب الدهر، فراح يطلق صيحات الشكوى والأنين متسائلاً هل من رجوع لدياره، إذ يقول:

(الكامل)

أمُـــذكِّري الأوطـــانَ إنَّ لـــذْكرها أرجـــاً يَشُـــوقُ إلـــى الـــدِّيار نُفُوســـا
ذكَّرْتنيهـــا فاجتلبْـــتَ بلابلـــي ونشـــرْت مـــن داء الغـــرام رَسيســـا
هـــي مـــا علمْـــتَ مَنـــازلي زمَـــنَ الصِّـــبا تجْلُـــو البُـــدور بهـــا علـــيَّ شُموســـا
لكـــن لريْـــبَ الـــدَّهْر أضـــحَتْ مألفـــاً وكفـــى بريْـــبِ الـــدَّهْرِ فيهـــا بُوســـا
ألأربـــل الغـــرّاءَ تطْلُـــبُ أوبتـــي هيهـــات فارقـــت الجُســـومُ الرُّوســـا[2]

أما ابن الظهير الأربلي(-٦٧٧هـ)فقد دعته أوجاع الغربة إلى استذكار الوطن والأحباب وأيام لهوه وسروره علَّه يجد في ذلك ما يهوِّن إحساسه وأساه،حين أضحى به الألم والحنين إلى أن يتمنى على الدهر أن يحكم برجوعه بعد أن حمله على الاغتراب والبعاد: (الخفيف)

لـــو وجـــدْنا إلـــى اللقـــاء ســـبيلا لشـــفَيْنَا بـــالقربِ مـــنكم غلـــيلا

وطنـــاً كنـــتَ ـوالســـرور معـــين- ســـاحباً فيـــه للمُـــزاحِ ذُيُـــولا
لـــم يـــزل جفنـــي المُسَـــهَّدُ جفنـــاً مُـــذ بـــدا ســـيفُ برقِـــهِ مســـلولا
وإذا هبَّـــت الريـــاحُ شـــمالا فكـــأني شـــربتُ راحـــاً شـــمولا

(١) ديوانه ص٧٦.

(٢) قلائد الجمان، مج٢، ج٣، ص١٦٦، وهو طه بن إبراهيم بن أحمد أبو محمد الإربلي كان حافظاً للقرآن وله طبع سمح في الشعر، قدم مصر شاباً توفي سنة (٦٧٧ هـ) ، ينظر: م. ن، ص١٦٣-١٦٤، فوات الوفيات، ٤١٣/١.

حكـــم الـــدهرُ بالبعـــاد فهـــل يـــر جـــعُ يومـــاً للقُـــرْبِ منـــه مـــديلا[1]

وقد يأخذ الشوق مأخذه في نفس الشاعر، فتعتصر روحه ألماً،حين يهمُّ بالرحيل فتتوقد بداخله مشاعر الاغتراب،لذلك نجد أبا حامد الكاتب (كان حياً سنة ٦٥٠هـ) يتشوق إلى الموصل حين عزم الرحيل قاصداً حلب، لمَّا مرَّ بدير حافر، ففاضت عيناه دموعاً وحنيناً لبلدته التي لا تضاهيها مدينة أخرى في نفسه إذ يقول:

(الطويل)

يقـولُ زميلـي حـين جَـدَّ بنـا السُّـرَى وعـــاينَ منِّـــي فـــيضَ دمْـــعِ المحـــاجرِ
أشـوقاً إلـى الأوطـان وهـي قريبـةٌ إليـــك فمـــا ألفـــاكَ عنهـــا بصـــابر؟
فقلـتُ لـهُ: مهـلاً وكـن لـي عـاذراً فـأين رُبـى الحـدباء مـن دَيْـرِ حـافرِ؟[2]

أمـا ابـن دنينيـر اللخمـي فقـد ذاقـت نفسـه شـتى أنـواع المكائـد مـن المبغضـين والحاسدين،فأكثرمن شكواه التي حملت صرخاته فنجدها تعلو حيناً وتخفت حيناً آخر،معبرةً عن إحساسه بالغربة والتي أحس بمرارتها حين رحل إلى دمشق فلا يفتأ يصور هذا الإحساس، بقوله:

(الطويل)

أجِلَّـقُ إنْ قاسـيتُ فيـك خصاصـةً فحســبُكِ عــاراً أنْ أُرى فيــك مُعــدماً[3]

لقد كانت رحلته سبباً مباشراً لإحساسه بالاغتراب وانعدام قدرته على التكيف مع الأوضاع السائدة في المجتمع الجديد الذي يعيش فيه، إذ رفض ذلك المجتمع، وتكرر إحساسه هذا في شعره، فهذا الضياع الذي أحسَّ به ما هو إلاَّ البعد الحتمي للواقع الاجتماعي الجديد، فكان شعوره بالاغتراب عن وطنه وأُسرته وقومه يثير أساه وأوجاعه حين ذاق مرَّ

(١) ديوانه ص١٩٤-١٩٥، الراح الشمول: الخمر البارد.

(٢) قلائد الجمان مج٢، ج٣، ص٣٠٢-٣٠٣، وهو عبد الرحمن محمود بن بختيار أبو حامد الكاتب الإربلي الموصلي المولد والمنشأ، كان شاباً قصيراً تفقه على مذهب الإمام الشافعي، يذكر صاحب الترجمة انه شاهده والتقى به، ينظر: م. ن، ص٣٠٢-٣٠٦، ودير الحافر: قرية بين حلب وبالس.

(٣) ديوانه ص٤٢١، وينظر: ٩١.

الهوان، وهو يستذكر وطنه الذي عاش فيه مكرماً، فيطلق صرخة الألم والندم، إذ يقول:

(الطويل)

أُفــارقُ أوطانــاً ويســراً وأُســرةً وقومــاً كرامــاً عِشــتُ فــيهمْ مُكرّمــا[1]

وعندما تأخذ حدة التأزم مداها في نفس الإنسان، يشعر بالفقد والوحشة، فيلوذ بالبكاء والأنين ليعبِّر عن سعير أشواقه، وشدة وقع الفراق في نفسه وشعوره بالاغتراب، حين يقابل حاضره المحزون المغترب، وماضيه المقرون بالاستقرار في تلك الديار، كقول عبد السلام يحيى التغلبي التكريتي (-٦٧٥هـ) حين اشتد به الشوق إلى والده في بغداد:

(الخفيف)

دمــعُ عينــي مِــنَ الجُفــون ســكوبُ وحَشــاً حشــوُها أسًــى ولهيــبُ

وسَــقامٌ لــهُ تــرِقُّ الأعــادي وغــرامٌ بــه تــذوبُ القلــوبُ

إنَّ بــين الضُّــلوع نــاراً تلظَّــى فــالهوى واقــدٌ وشــوقي حطــوبُ

مــا تُريــدُ النَّــوى بنــا كــلَّ يــومٍ منــهُ تــأتي فجــائعٌ وخطــوبُ؟

فرَّقتنــا يــدُ الشــتاتِ فمــا العيــ ــشُ بحُلــوٍ ولا الحيــاةُ تطيــبُ

يــا غريــب الــدِّيار كــن لــي أنيســاً إنَّمــا يــألفُ الغريــبَ الغريــبِ[2]

وعاش التلعفري (-٦٧٥هـ) حياة قائمة على الترحال لا تعرف الاستقرار بمكان، ليس مبتغاه الرغبة في الترحال، بل عدم المواءمة مع الواقع الذي بات يرفضه، مما خلق في نفسه صورة من عدم الاستقرار، وأصَّلت فيه حالة من القلق والضياع ورغبة شديدة في أيجاد موطن جديد يلقي فيه عصى الترحال ولو إلى حين، إذ تركت هذه الحياة بما فيها من شقاء وألم وتشرد أثر ها في تكوينه النفسي، وربما نلمس في تنقلاته دلالة رمزية على الصراع الفكري، والتحولات الروحية في حياته حين أمطر عليه إحساس الاغتراب مطر السوء، وحاصره طوفان الروع والهلع من كل حدب وصوب، فشعر بالذل والغربة، فكانت

(١) ديوانه (أطروحة) ص٥١١.

(٢) قلائد الجمان مج٢، ج٢، ص٣٨٢، وهو عبد السلام بن يحيى بن درع بن حامد التغلبي القاضي ولد سنة (٥٧٠هـ) تكلم ووعظ الناس وعمره يومئذ تسع سنين، وهو من بيت القضاء والخطابة، اديب وشاعر وخطيب له مؤلفات في الخطب والرسائل والإشعار توفي سنة (٦٧٥ هـ) ، ينظر: م. ن، ص٣٧٥-٣٧٦، فوات الوفيات ٣٢٥/٢.

بضاعته عبارة عن همومٍ تزداد نمواً فغدت مشاعر السخط والاستنكار عوامل تؤكد ضعف انتمائه لهذا المكان أو ذاك، ولاسيما حين يعبر عن خيبة أمله، لذلك وجدناه طريداً بين دمشق وحلب، بعد أن فقد أمله في العودة إلى منزلته الأولى عند ملوكها، إذ أخذ يستجدي بشعره وهو في دمشق، وكان ينفق ما يحصل عليه في الميسر والخمر، حتى أضاع كل ما يملكه، وبات يُقيم في أتون حمامٍ، ولكنه على الرغم من ذلك كان ينشد:

(المتقارب)

رضـــيت بمـــا قسـم الله لـــي ... وفوَّضـــت أمـــري إلـــى خـــالقي
لقـــد أحســـن الله فيمـــا مضـــى ... كـــذلك يحســـن فيمـــا بقـــي[1]

وحين يشعر الشاعر بالاغتراب في موطنه أو مستوطنه، قد يلجأ إلى التعبير عن سخطه وألمه، فلا يهجو الناس مباشرة، بل يأتي إلى ذم المدينة متوصلاً من خلال ذلك إلى ذم أهلها وساكنيها، كقول طه بن إبراهيم الأربلي:

(الوافر)

لحـــاكَ الله مـــن بلـــدٍ خبيـــثٍ ... فلســـتَ تطيـــبُ ألاّ للغريـــبِ
أ إربـــلُ لا ســـقاك الله غيثـــاً ... فقـــد أقفـــرتِ مـــن رجُـــلٍ لبيـــبِ
أرى الغـــرَّاءَ قـــد مُلئـــتْ لئامـــاً ... وقـــد ضـــاقت علـــى النَّصـــحِ الوهـــوبِ
فمـــا فـــي مالكيهـــا مـــن مُعـــينٍ ... علـــى صـــرف الزَّمـــانِ ولا الخُطُـــوب
ولا فـــي قاطنيهـــا أريحـــيٌّ ... ولا فـــي ســـاكنيها مـــن طَـــروبِ
ألا أخـــزى الإلـــهُ بُليـــد سُـــوء ... تحكَّـــم فيـــه عبَّـــادُ الصَّـــليبِ[2]

ونجد الدعاء بعدم السقيا يتكرر عند السراج الإربلي (-٦٣٠ هـ) عند هجائه إربل، وحينما أشتد غضبه بأفعال أهلها، مما ترك في نفسه هواجس حزن، إذ رأى أنَّ الحقَّ لا

(١) ديوانه ص٢٩، وينظر: تاريخ الأدب العربي، العصر المملوكي، د، عمر موسى باشا، ص١٤٤-١٤٥، وهو شهاب الدين محمد بن يوسف بن مسعود الشيباني ولد بالموصل سنة (٥٩٣ هـ) ، كان حافظاً للأشعار، تجول في البلاد ومدح الملوك والأمراء وله نظم جيد في الغزل والخمرة، توفي سنة (٦٧٥هـ) ، ينظر: عيون التواريخ ٤٧/٢١، والأعلام ٢٥/٨.
(٢) قلائد الجمان، مج٢، ج٣، ص١٦٥.

يحق فيها، وأفقده الاحتقان النفسي قدرة التعايش مع الناس وواقعهم،فراح يصب غضبه على المدينة في محاولة منه لإفراغ سخطه واغترابه،لعزلته التي فرضها على نفسه، أو فرضتها نفسه عليه قسراً،وذلك لعمق المسافة بين ما تمناه وما هو واقع حقاً، إذ يقول:

(السريع)

لا بـــارك الـــرَّحمنُ فـــي بلـــدةٍ يُـــدْحَضُ فيهـــا الحـــقُّ بالباطـــلِ
ولا أقـــــــام الله راياتهـــــــا ولا سَـــقاها مِـــنْ حَيـــاً هاطِـــلِ[1]

وقد يلجأ الشاعر إلى ذمِّ القيم والعادات السائدة بين الناس، وسوء فعالهم، من خلال ذم المدينـة، داعيـاً إلـى الرحيـل عنهـا كقـول عثمـان بـن إبـراهيم الرصاصـي الإربلـي (-٦٣٢هـ):

(الوافر)

تعـــزَّ فأنَّـــهُ بـــرْقٌ جَهَـــامُ ومـــا لسَـــحَابه أبـــداً سِـــجامُ
ولا تستســـقِ عارضَـــهُ بِنَـــوْءٍ فـــإنَّ ســـقاءَ عَارضـــه سَـــمامُ
وجـرَّد سـيْفَ عزْمِـكَ مـن جفيـر الـ إقامـــة وارتحـــل فلـــك الـــذِّمامُ
وبـــاين ربْـــعَ إربـــل وأنـــأَ عنهـــا فلـــيس لعاقـــلٍ فيهـــا مُقَـــامُ
وكيـف تـرى الثَّـواء بـأرض قـومٍ بهـــا الإبريـــز عـــدْلٌ والرُّغـــامُ
هـــلا فارحـــل قُلوصَـــك عـــن أُنـــاسٍ هُـــمُ عـــنْ كُـــلِّ مكرمـــةٍ نيـــامُ[2]

إذ نجده يبحث عن أمل الاستقرار في الدعوة إلى الرحيل عن إربل وسكانها الذين لم يجد عندهم مكرمة تطوله، ولم يتحسس الأمان في تلك الديار، فعلت صيحات الرحيل معبرة عن أسى نفسه.

(١) قلائد الجمان، مج٣، ج٤، ص١١، وهو عبد العزيز بن عمر بن يحيى السراج الإربلي، ولد سنة (٦٠٥هـ) وكان محباً لأهل الأدب والفضل توفي شاباً سنة (٦٣٠هـ) ، ينظر: م. ن، ص١١.

(٢) م. ن، مج٣، ج٤، ص٢١٣، وهو عثمان بن إبراهيم بن علي أبو عمر الرصاصي الإربلي نسبة إلى عمل الرصاص، خرج من إربل هارباً بعدما نظم أرجوزة هجا بها أصحاب الديوان، ثم عاد إليها وعمل على نقشسكك الدنانير في دار الضرب، توفي سنة (٦٣٢ هـ) ، ينظر: م. ن، ص٢١٣، الجيفر: جعبة من خشب أو جلد.